

واستكباراً وانخداعاً بالملك والسلطة والمال من كل طاغية يرى أنه يستغني عن الأشياء ويحقد على غيره ويحسده ومع غياب الوعي عن الجماهير وغفلتهم يزداد طغياناً لأنه لا أحد ينهاه عن هذا المنكر ويجفف منابع طغيانه ويقطع عنه روافده أو حتى يقوم بواجب النصيح والموعظة الحسنة، وقد يتعلل الكثيرون بأنه يخنقهم ويكبل تطلعاتهم، وهذا ما يفسر لجوء البعض إلى النكتة السياسية تنفيساً عما في صدورهم؛ ولذا فقد نبه القرآن الكريم في آياته إلى خطورة الطغيان، مبيناً على سبيل المثال أن فرعون لم يكن قوياً بل كان طاغية، وهذا كما في قوله -تعالى-: { اذهب إلى فرعون إنه طغى }، ولكن عندما قص علينا قصة موسى بين أنه هو القوي وإن كان في الظاهر ضعيفاً أمام فرعون هو وأصحابه، وهكذا كل طاغية يقول العلماء لا يمكن أن تسميه قوياً بل طاغية بطاشاً ومآله إلى الهلاك كفرعون، وكل فرعون في كل عصر ومصر وفي قوله -تعالى-: { وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد } {الفجر: 9-14}. إذ ليس وراء الطغيان إلا الفساد والطاغية أسير هواه لا يفتى إلى ميزان ثابت ويجعل الجماهير أرقاء أذلاء ويحطم القيم والتصورات المستقيمة أو يزيفها على مزاجه ويفبرك الأحداث ويقلب الحق باطلاً، ويكثر الفساد، فيكون العلاج من الله وجنوده هو تطهير الأرض من فساده، فيرصد الله عمله ويسجله إن ربك لبالمرصاد.

وهذه هي سنة الله في الأشرار مهما ادعوا الإصلاح؛ {إن الله لا يصلح عمل المفسدين}، [يونس: 81]، وأقرأ إن شئت عن هذا: في ظلال القرآن [6 سورة البروج]، ولما أراد الفيلسوف أرسطو أن يتحدث عن مفهوم الاستبداد قابله مع مصطلح الطغيان وقال: إنهما وسيلتان لحكم الرعايا كالعبيد واغتصاب السلطة، ولكن الذين يحكمون اليوم في سورية لم يجعلوا لهم مثلاً إلا (مونتسكيو) الذي يعتبر سكان الشرق عبيداً بالسليقة ويجب أن يعاملوا كالحوانات، وقد رد عليه كثير من المفكرين والفلاسفة، ثم انتقل معنا إلى عائلة الديكتاتورية المصطلح الروماني الذي يستفيد بموجبه الطغاة بعضهم من بعض، ولقد كانت في زمانهم لا تتجاوز الستة أشهر فقارنها ملياً عندنا الأسد إلى الأبد، الأسد أو لا أحد، الأسد أو نحرق البلد، ثم انتقل إلى عائلة الشمولية التي تستفتي على زعيم واحد ليخرج من قبعته أرنياً اسمه الديمقراطية على قطع لا حيلة لهم وهذه قريبة من عائلة السلطة المطلقة.

وهكذا وهكذا يكون الطاغية الذي يقتل شعبه صباح مساء، بل حتى لم يجد هذا الشعب المسكين وقتاً لدفن شهدائه لتواصل النيران، ولذا فقد ذهبت القوانين اليونانية منذ القدم إلى منح جائزة أولمبية لمن يقتل الطاغية، فقتله قد كان واجباً عندهم في حين يرى البعض وجوب نبذه لأن الطغيان مسألة يستنكر حسمها بالسيف..

إن نظام الأسد الأب والابن لم يكن قوياً ولن يكون ولكنه دام هذه العقود الأربعة بالطغيان والبطش والفاشستية والسجن والتعذيب والاختطاف والتشريد والاعتداء على الشيوخ والأطفال والنساء وهدم وحرقت الممتلكات والشجر والحجر حتى الدواب، فأرهب الناس وهذا ضعف لا قوة، وقد بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الشديد لا يكون بالصرعة، وإنما الذي يملك نفسه عند الغضب، وأن هذا النظام إنما يقوم على قانون القوة التي هي بمعنى الطغيان هنا لا على قوة القانون، ونحن نقول له ما قاله بدر الدين الحامد:

إذا كنت يا هذا قوياً فلا تكن *** غريباً فكم خيل بفرسانها تكبو

ونقول له: لا قوة إلا قوة الضمير كما قال ارسكين وكما قال غاندي، ليست القوة هي الحق وإنما الحق هو القوة، ولذا فإنه نظام ضعيف وغير متماسك إلا بما ذكرت، وبحبل من الناس كإيران وروسيا وحزب الله وعراق المالكي ومن أشبههم. ولأنه يظن أن الشعب ضعيف ومعارضيه ليسوا بشيء؛ فإننا نقول له: إن الذي صبر عاماً وشهرين أمام كل هذا القمع وبصدر عار وتحمل نزع الدم والقتل والجرح والسجن والتهجير القسري، ورأى قصف المساجد بل والكنائس مثل كنيسة السريان الكاثوليك في حي الحميدية بدمص مؤخراً؛ سوف يستمر في ثورته ومعنوياته في الريح بل تسابقها وهو يقول لكل ظالم

لا تحتقر كيد الضعيف فربما *** تموت الأفاعي من سموم العقارب

كما قال عمارة اليميني أو كما قال جورج بومبيدو: آفة القوة استضعاف الخصم. وهكذا فالشعب السوري بجميع أطيافه الدينية والسياسية هو القوي حقيقة لا شكلاً، وكما يقول ناصر الإسلام والعربية مصطفى صادق الرافعي: "الحق أقوى من القوة أي الطغيان، والشعب أقوى من الحكومة، وإن النصر لمن يحتمل الضربات لا من يضربها".

المصدر: رابطة العلماء السوريين